المثل السائر

فى أدب الكاتب والشاعر

لابن الأثير

٥٥٨ هـ – ٦٣٧ هـ

obeikandl.com

تعريف بالمؤلف :

هو أبو الفتح نصر الله ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشبيانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى ، الملقب بضياء الدين كان مولد بجزيرة ابن عمر ، ونشأ بها ، وانتقل مع والده إلى الموصل فى رجب سنة تسع وسبعين وخمسماية ، وبها اشتغل وحصل على العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم وكثيرا من الأحاديث النبوية ، وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئا كثيرا من الأشعار[١١٦] .

ويتحدث ابن الأثير عن نفسه فى كتابه " الوشى المرقوم " فيقول : وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين من أمثال : حبيب بن أوس الطائى ، وأبى عبادة البحترى ، وأبى الطيب المتنبى ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين، حتى تمكنت من صوغ المعانى[١١٧] .

وهذا دليل على أن ابن الأثير كان مغرما بالشعر ، شغوفا بالأدب ، وذلك سر تمكنه من صوغ المعانى وميزه بين الغث والسمين .

ولما كملت لابن الأثير أدوات الثقافة ، جعل جناب الملك الناصر صلاح الدين وكده ، فوصله القاضى الفاضل بخدمة صلاح الدين فى جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة فى خدمته والانتقال إلى ولده ، مع بقاء ما أجراه عليه من مال ، فاختار ابن الأثير ولد صلاح الدين ، ومضى إليه وكان يومذاك شابا فاستوزره ولد

---

[١١٦] - وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق الدكتور – إحسان عباس ص ٣٨٩ دار صادر بيروت .
[١١٧] - ذاته .

الملك الأفضل " نور الدين على " وحسنت حاله عنده[١١٨] ثم توفى صلاح الدين واستقل الملك الأفضل بدمشق وصار أمر الوزارة إلى ابن الأثير ، وردت أمور الناس إليه وصار الاعتماد فيها عليه ، وساءت عشرة ابن الأثير لأهل دمشق مما جعلهم يهمون بقتله فأخرجه إلى الحاجب " محاسن بن عجم " متخفيا فى صندوق مقفل عليه وله فى خروجه متخفيا رسالة طويلة – يشرح فيها حاله ، والأطوار التى مر بها ، وهى موجودة فى ديوان رسائله .

ثم اتصل بخدمة الملك الظاهر صاحب حلب ، ولم يطل به عنده ، ولم ينتظم معه أمره ، وخرج مغضبا وآب إلى الموصل ، ومع ذلك لم يستقم حاله ثم ورد " إربل " وسافر إلى " سنجار " ثم عاد ثانية إلى الموصل متخذا إياها مستقرا : وكتب الإنشاء لصاحبها " ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاة " .

ومما تقدم واستبان بوضوح لنا سر غزارة معارفه وتفوقه فى الكتابة ، ومعرفته بألوانها وضروبها ، ونقده لغيره من الكتاب ، حيث إنه تقلد مناصب الوزارة واتخذه الملوك كاتبا لديوان الإنشاء وأسفاره الكثيرة ، وضربه فى مناكب الأرض مما جعله ذا خبرة واسعة ، ومعرفة كبيرة بالبلاد والملوك والكتاب والعلماء، مما أثر فى كتابه وثقافته تأثيرا واضحا .

وكان ابن الأثير يعارض القاضى الفاضل فى رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ ابن الأثير مثلها ، كما كانت بينهما مكاتبات ومجاوبات[١١٩] وفى ذلك دليل واضح على أنه صاحب قدم راسخة فى فن الكتابة فمكانة القاضى الفاضل فى هذا الميدان مما لا يختلف فيها إثنان ، ومجاراة ابن الأثير للقاضى الفاضل ومكانته ، ومجاوبته دليل تمكن ، وغزارة معارفه ، وسعة إطلاعه ورحابة فكره ، ومتانة قلمه ، وبلوغه

---

١١٨ ـ ذاته بتصرف ص ٣٩٩ .
١١٩ ـ راجع وفيات الأعيان ٥ / ٣٦٩ وتاريخ بغداد .

شأوا عظيما فى هذا المضمار وله أخوان هما مجد الدين أبى السعادات المبـــارك ، وأبى الحسن على الملقب " عز الدين " وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤســـاء ، ولكل واحد منهم مؤلفات مفيدة ، وتصانيف نافعة ، كما كان له ولد نبيه فـــى الـــنظم والنثر ؛ فكانما هؤلاء القوم خلقوا للعلم وصيغت نفوسهم منه .

وكانت ولادة ابن الأثير بجزيرة ابن عمر فى يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسي وخمسماية ؛ وتوفى فى إحدى الجمادين سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد . وصلى عليه بجامع القصر ودفن بمقابر قريش فى الجانب الغربى بمشـــهد موسى بن جعفر رضى الله عنهما ويقول عبد اللاه محمد بن النجار البغـــدادى فـــى تاريخ بغداد : توفى يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر مـــن الســـنة نفسها[١٢٠]

[١٢٠] راجع وفيات الأعيان ٥ / ٣٩٦ وتاريخ بغداد .

obeikandl.com

مؤلفاته :

لضياء الدين ابن الأثير تآليف كثيرة ، وتصانيف تدل على غـــزارة علمـــه ، وسعة أفقه ، ورحابة فكره ؛ وتومىء إلى فضله ونبله وهى :

١- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر :
وهو فى مجلدين جمع فيه فأوعب . ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة إلا ذكـــره . ولما فرغ من تصنيفه كتب الناس عنه .
فوصل إلى بغداد منه نسخة ، فانتدب له الفقيه الأديب عز الدين أبو حامد المدائنى وتصدى لمؤاخذته والرد عليه ، وجمع هذه المؤخذات فى كتاب ســـماه " الفلـــك الدائر على المثل السائر " .
فلما أكمله وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالى أحمد ويدعى القاسم أيضـــا ، فكتب إلأى أخيه يقول :

المثل السائر ياسيدى صنفت فيه على الفلك الدائر
لكن هذا فلك دائـر تصير فيـــه المثـــل الســائر

٢- الوشى المرقوم فى حل المنظوم : وهذا المؤلف مع وجازته فى غاية الحسن والفائدة .
٣- كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء : ومن خلال التســـمية للكتـــاب نستشف ما احتواه من معان رائقة وألفاظ متخيرة منتقاة ، وأساليب رصـــينة قوية يفيد منها الكتاب والادباء والعلماء والشعراء ، لذلك يقول عنه صـــاحب الوفيات " وهو أيضا نهاية فى بابه "[١٢١] .
٤- وله مجموع اختارفيه شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى .

---

[١٢١] - الوفيات ٥ / ٣٩٢ .

٥- وله أيضا " ديوان ترسل " فى عدة مجلدات والمختار منه فى مجلد واحد .

ومن اسمه نستشف ما حواه الكتاب من فنون الكتابة فى مختلف المناسبات ، وتباين الماقف بأسلوب متين ، ولفظ رصين . ونسوق مثالا على ذلك من وصفه للعصا التى يتوكأ عليها الشيخ الكبير فيقول : " وهذا لمبتدأ ضعفى خبر ، ولقوس ظهرى وتر وإن كان إلغاؤها دليلا على الإقامة فإن حملها دليل على السفر " .

وله أيضا رسالة يصف فيها الديار المصرية تدل على قدرته الفائقة وبراعته فى فن الكتابة ، وتخيره للألفاظ دليل على تمرسه بالأساليب القوية ورحابة فكره ، وغزارة معارفه حيث يقول فى وصف نيل مصر زمن فيضانه وهو معنى بديع .

" وعذب رضابة فضاهى جنى النحل ، واحمر صفيخه فعلمت انه قد قتل الممل ". وهو معنى نهاية فى الحسن والجمال ، والرونق والبهاء .

٦- كتاب البرهان فى علم البيان ، وكتاب الجامع الكبير فى صناعة الكلام المنثور ، وكتب المختارات ، وجميعها يدورحول الأبواب التى وردت فى كتابه " المثل السائر "

ولقد أثبت الباحثون لابن الأثير سبعة عشر مصنفا جميعها يدور حول صناعة الإنشاء ومن الترسل .

ثقافته :

كان ابن الأثير أديبا من كبار الأدباء العربية ، وكاتبا من كتاب العصر الأيوبى المبرزين ، وصاحب قدم راسخة فى الكتابة والدليل على ذلك أن الكاتب من وجهة نظره لابد وان تتوفر فيه الشروط بأعيانها فنراه يقول :

" والكاتب ينبغى ان يتعلق بكل علم ، وفى رأيه أن كل ذى علم يسوغ لـــه أن ينسب نفسه إليه ، فيقال : فلان النحوى وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب إلى الكتابة فيقال فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه الكاتب من الخوض فـــى كل فن ، وتمثل هذه النظر إلى الأديب الكاتب نظر ابن الأثير إلـــى البلاغـــى ، أو صاحب البيان ، وذهب إلى انه لا ينبغى له أن يقدم على هذا العلـــم إلا إذا اكتملـــت لديه ألوان ثمانية من المعارف وهى :

أولا : معرفة علم العربية " من النحو والتصريف " .

ثانيا : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله ، فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ، ولا المستكره المعيب .

رابعا : الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فإن ذلك فوائـــد جمـــة : لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنيعته فى ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكى الفطنة ، وإذا كان صاحب الصناعة عارفا بها تصهر المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه ، ياخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وإذا كـــان مطلعا على المعانى المسبوق إليها فإنه قد يتهيأ له من بينها معنى غريب لم يســـبق إليه[١٢٢] .

خامسا : معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك، لما يحتاج إليه الكتب فى تقليدات الملوك والأمراء وغيرهم ممن يجرى مجراهم .

---

[١٢٢] - المثل السائر – القسم الأول – تحقيق – د . أحمد الحوفى بدوى طبانه – دار نهضة مصر ص ٥ وما بعدها بتصرف .

obeikandl.com

وإذا لم يكن الكاتب عارفا بالحكم فى الحادث واختلاف أقوال العلماء فيها وما هو رخصة فى ذلك ما ليس برخصة ، فإنه لا يستطيع أن يكتب كتابا نافعا ينتفع به[١٢٣] .

سادسا : حفظ القرآن الكريم ، فإن صاحب هذه الصيغة ينبغى له أن يكون عارفا به . لأن فيه فوائد كثيرة ، كأنه يضمن كلامه بآياته ، واستعمالها فى مواضعها المناسبة ، فإن القرآن الكريم هو قمة الإعجاز البلاغى اللغوى ، وإذا عرف أسرار البلاغة فيه استطاع أن يستخرج منه اللآلى والجواهر .

سابعا : حفظ الأخبار النبوية مما هو فى حاجة إلى استخدامه .

ثامنا : ما يختص بالناظم دون الناثر ، وذلك بمعرفة علم العروض وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز حيث إن الشاعر محتاج إليه ، وإن كان النظم مبنيا على الذوق ، ولكن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ، ويكون ذلك جائزا فى علم العروض ، وقد ورد للعرب مثله ، فإذا كان الشاعر غير عالم به لا يستطيع التفرقة بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز[١٢٤] .

ويشترط ابن الأثير قبل تحصيل المعارف أن يكون الله تعالى قد كتب فى الاديب طبعا قابلا لهذا الفن ، وابن الأثير يثنى بالطبع هنا الموهبة ، ثم تنمى الموهبة لدى الشاعر بالاطلاع وتحصيل العلوم والمعارف وذلك مما لا يختلف فيه اثنان .

وصاحب هذه الصنعة فى حاجة إلى الإلمام بكل فن ، فهو محتاج إلى معرفة ما تقوله النادية بين النساء ، والماشطة عند جلو العروس ، والمنادى على السلعة فى السوق ، وهكذا حيث إنه مؤهل لأن يصف ويتحدث ويهيم فى كل واد ، وهو فى حاجة إلى معرفة كل ذلك ليفيد منه ، ويتحدث عنه ، ويقصد ابن الأثير هنا شمولية الثقافة حيث إن الشاعر فى حاجة إلى معرفة كل العلوم والإلمام بأطراف الثقافة ، أو

---

[١٢٣] - ذاته .
[١٢٤] - ذاته بتصرف .

الأخذ منها قدر ما تسعفه طاقته ، وهو فى حاجة إلى هذه الينابيع ليمنح من ركـــائز الشعر والخيال بأرشية قوية وأشطان فتية ، فيصف ويرثى ويمدح ويهجو ويتغـــزل ويبكى الديار والدمن البوالى ...

ويغالى ابن الأثير فى ثقافة الأديب ، فهو يرى أنه لا حصر لمواردها والبيان كالجمال لا نهاية لكل منها .

ورجل كابن الأثير يصف لنا ما يجب أن يكون عليه الكاتب ، وما يلزم التحلى به ويضع له تلك السمات والمعالم دليل حاسم على مدى ثقافته الشـــاملة ، ومعرفتـــه المحيطة بكل المعارف والعلوم . ومن بينها ما اشترط توافره فى الكاتب من الشروط التى ذكرناها آنفا ؛ كما أنه دليل على ثقافته الواسعة ، ورحابة فكره ، وتوقد ذهنه ، ونفاذ بصيرته وحسه المرهف ، وذوقه الادبى الرفيع .

والكتاب خير دليل على انه نال حظا كبيرا من هذه الثقافات وتلك المعارف ، فضلا عما وهبه الله من موهبة وأصالة طبع وغزارة معرفة ، وقوة حافظة .

ومن هذا المنطلق كانت آراء ابن الأثي فى الأدب والنقد تصدر عن الفن الذى أعده لنفسه ، وعن تجربة له فى الحياة ؛ كما انه قرأ آثار الكتاب الذين ذاع صيتهم ، وسطع فى سماء الكتابة نجمهم ، وذلك للوقوف على مناهجهم فى الكتابة مـــع النقـــد والتحليل وفق ما ارتضاه من مقاييس .

وكان ابن الأثير لا يقنع بما يوجهه إلى أولئك الأعلام من النقد لأثارهم ولكنه كان يتبع هذا النقد بنماذج من آثاره ، ويوقف على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره حتى يستدرج قارئه إلى الإذعان لنبوغه ، والتسليم بتفوقه ، ثم يثنى على نفسه وفنـــه بما استطاع .

ودليل ذلك ما يلى :

أولا : نقده للقاضى الفاضل فى قوله : وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى – رحمه الله – عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب – رحمه الله – إلى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية[١٢٥] وإقامة الدولة العباسية ، وشرح فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال .

ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه الخطابة حقها إلا أنه أخل بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى (ﷺ) مكة ، فإنه قصدها عام الحديبية ثم سار إليها فى عمرة القضاء ثم سار إليها عام الفتح ففتحها[١٢٦] .

وقد سألنى بعض الإخوان أن أنشىء فى ذلك كتابا إلى ديوان الخلافة معارضا للكتاب الذى أنشأه " عبد الرحيم بن على " رحمه الله .

فأجبته إلى سؤاله وعددت مساعى صلاح الدين يوسف بن أيوب – رحمه الله– فقلت : ومن جملتها ما فعله الخادم فى الدولة المصرية وقد قام بها منبر وسرير[١٢٧] إلخ..... إلى ان يقول : (وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى . مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه ! " .

ونرى لابن الأثير نظرات نقدية جادة تدل على سعة أفقه ورحابة فكره وغزارة معارفه ، فيقول فى ابن زياد الكاتب البغدادى " وجدت لابن زياد البغدادى كتابا كتبه إلى الملك صلاح الدين يوسف فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمنه فصولا لا تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة .

---

[١٢٥] - الدولة العلوية : هى الدولة الفاطمة . النسبة الأولى إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه والفاطمة نسبة إلى السيدة فاطمة ابنته رضى الله عنها .

[١٢٦] - المثل السائر ص ٦٥ .

[١٢٧] - ذاته .

فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقب بلقب الملك الناصر وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله ، فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا ، قد أجاد فيه كل الإجادة ، ولم أجد فيه مغزا إلا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة. بل أتى فيه غثاثة كقوله ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام وشيئا من هذا النسق ؛ وكان الأليق والأحسن أن يحتج بحجة فيها روح ويذكر كلاما فى ذلاقة ورشاقة[١٢٨] قال : وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجرى حديث ذلك فسألنى عما كان ينبغى ان يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ما عندى وهو " قد علم أن الأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد[١٢٩] .

إلى أن يقول فيها القارىء إلى ما وفق إليه ومازنا بين نفسه وابن زياد : فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى وجعلته شاهدا على هذا الموضع ، ولا يمكن أن يحتج مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج .

وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به مع انه كان كاتبا مفلقا . أرتضى كتاباته. ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن[١٣٠] .

وهكذا يعطينا من خلال حديثه عن الكتابة وفنونها قصورا لما يجب ان يكون عليه الكاتب الأديب ، والناقد صاحب الحس المرهف ، والذوق الأدبى الرفيع من تعلم جميع العلوم والفنون ، والوقوف على أسرارها وخوافيها حتى يكتمل لديه عدته وسلاحه ، وتستكمل عنده رسالته ونجاحه ، ولذلك وضع ابن الأثير أمام المشتغلين بهذا الفن " أعنى الكتابة " أسسا ثابتة يجب على الكتاب معرفتها وإدراكها حتى تأتى

---

[١٢٨] ـ دلاقة : دلق اللسان ودلقته : حدثه ، ردولقه : طرفه وكل محدد الطرف مذلق دلاقة فهو دليق ودلق ودلق ودلق . وذلك اللسان . درب اللسان ٣/ ١٦١٢ ط دار المعارف مادة " دلق "

[١٢٩] ـ ذاته ص ٦٨ .

[١٣٠] ـ ذاته ص ٦٩ .

كتاباتهم ثابتة الأركان قوية الدعائم لا تتعتع أمام النقد ، ولا تتزحزح أبنيتها ، ولا تضطرب بناؤها على مدى الأيام وكر العصور .

بين يدى الكتاب :

وابن الأثير الذى أثبت له الباحثون سبعة عشر مصنفا تدور كلها حول صناعة الإنشاء ومن الترسل ، والمختار من الشعر والأخبار النبوية ، يكاد يجمع كل هذه المصنفات فى كتابه الفذ " المثل السائر " وكما قيل " كل الصيد فى جوف الفرا".

كأن المثل السائر جوف الفرا ، فقد جمع كثيرا من موضوعات هذه المصنفات، وبخاصة تلك التى تدور فى فلك صناعته التى خصص لها كثيرا من جهده ووقته ، وهو مؤلف بارع وكاتب حصيف ، يقدم لكتابه بما يجعله بين الهدف واضح الغاية ، وكان قد وقف على مناهج البحث الأدبى كما وضعها المحدثون . أو هدى إلى ما يجب المؤلف ان يقوم به تجاه ما يكتب حتى لا يفجأ القارىء بأمر لم يمهد إليه ؛ أو بقضية خالية من مقدماتها ، فتتزلزل أركانها ويتخلخل بنيانها[١٣١] ولقد حوى الكتاب من الآراء والفكر الدائر حول فن الأدب ، والتى سيرت أغواره ، وخبرت أسراره ، وضربت فى جذوره البعيدة الغور ، وزخرت بكثير من أصول تلك الصناعة ، التى اهتدى إليها العلماء والأدباء والنقاد .

وعلى الرغم مما امتاز به الكتاب من آراء نيرة ، ونظرات ثاقبة أثرت على أعلام الفكر والأدب والنقد ، إلا أنك واجد فبه معالم الأصالة ، وأثراً واضحاً لشخصية ابن الأثير فى الكتاب والتى تميزه عن لداته وأترابه فى ذلك المضمار .

---

[١٣١] - راجع مجلة كلية اللغة العربية ، المنوفية – العدد الأول ص ١١٨ وما بعده بتصرف .
من مقال للأستاذ الدكتور / عبد النعم أحمد يونس .

obeikandl.com

وابن الأثير حلق فى آفاق المعرفة ، تجد ذلك واضحا فى هذا المصدر الأدبى الهام ، وهو " المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " . حيث إن الكتاب فيه كثـــرة كاثرة من الإشارات التاريخية ، وإلمام واسع بعلوم العربية كما ان الكتاب خير شاهد على معرفة ابن الأثير بأسرار اللغة العربية ، وبخاصة القرآن الكريم مـــع قدرتـــه الفائقة على فهم آياته ، واستحضارها والاستشهاد بها فى أماكن مناسبة ، كمـــا أنـــه يضم الكثير من الأحاديث النبوية ، والوقوف على سير الصحابة وأخبارهم رضى الله عنهم .

كل ذلك إلى جانب ما ازدان به الكتاب من حكم العرب وأمثالها ومـــن جيـــد منثورها ومنظومها مما يستهوى الفؤاد ويسحر الألباب ، ويأخذ بأزمة القلوب .

وإذا كان الهدف من الكتاب تعليم الناشئة – فن الكتابة وإرشادهم إلى ما يجب عليهم نحوها ، فإن علم البيان من أمس العلوم التى تكون لديهم تلك الملكة ، وتغرس فى نفوس حبها ، والتعلق بها ، وليس المقصود بعلم البيان ما تعورف عليه فيما بعد من تشبيه وإستعارة وكناية ، وإنما المقصود به جميع الوسائل التى تجعل المنشـــىء قادرا على تملك نواحى الإنشاء فيدخل فى ذلك حل المنظوم ، وحفظ ما يمكن حفظه، بل إن ابن الأثير ينص على ذلك فيقول :

وعلى ذلك فموضوع علم البيان هو الفصاحة ، والبلاغة ، وصاحبه يســـألعن أحوالهما اللفظية والمعنوية . وهو النحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالـــة الألفاظ على المعانى جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيـــان يغظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئـــة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب .

ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم المنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة[١٣٢] .

ثم يتحدث عن كتب الأدب وما حوته من أشعار وأخبار ونثر أدبى ككتاب " سر الفصاخة " لابن سنان الخفاجى و " الموازنة : للآمدى فيقول :

وبعد فإن علم البيان لتآليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وادلة الأحكام وقد ألف فيه الناس كتبا ، وجلبوا ذهبا وحطبا ، ثم يقول : فلم أجد ما ينتفع به ذلك إلا كتاب " الموازنة " لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب " سر الفصاحة " لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى . غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا ، وكتاب " سر الفصاحة " وإن نبه على نكت مثيرة فإنه قد أثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليهما ، ومن الكلام فى مواضع شذ عنه الصواب فيها[١٣٣] .

وينبه ابن الأثير إلى وجه القصور فى هذين الكتابين فيقول :

"على أن كلا من الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشورا وتركا لبابا "[١٣٤] .

ولعل ابن الاثير بهذه النظرة الصائبة فى الكتابين يهدف إلى دفع عجلة البحث العلمى وسد ما ورد فيهما من ثغرات ، وما جاء فيهما من قصور .

ثم يذكر ابن الأثير : أنه عثر على بعض الألوان التى حفل بها علم البيان ولم ينتبه إليها من سبقه من العلماء ، فيقول : " وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه – أى علم البيان – فى غضون القرآن الكريم ولم أجد أمرا ممن نقد حتى تعرض لكل شىء منها وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر على فوائدها وجدتها محتوية عليه بأسره ، وقد أوردت ها هنا وشفعتها بضروب أخر مدونة فى

---

١٣٢ - المثل الأثير لابن الأثير ١ / ٣٩ وما بعده تحقيق " أحمد الحوفى " بدوى طبانة .
١٣٣ - راجع المثل السائر لابن الأثير ١ / ٣٦ .
١٣٤ - ذاته ص ٢٦ .

الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله لأبتدع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ، ومنحنى درجة الاحتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى متبعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب[١٣٥] .

منهجه فى تآليف الكتاب :

لا ريب فى ان ابن الأثير باحث مدقق ، وصاحب نظره صائبة ، ولقد بين منهجه فى تأليفه لهذا السفر الجليل فنراه يتحدث عن منهجه فى التأليف وخطته فى التصنيف فيقول : وقد بنيته على مقدمة ومقالين .

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان والمقالتان تشتملان على فروعه فالأولى فى الصناعى اللفظية . والثانية فى الصناعة المعنوية . ثم بين قيمة ما كتب مباهيا جميع السابقين معلنا تفرده فى بابه فيقول :

" ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان ، ولا السلامة من سبق اللسان، فإن الفاضل من تعد سقطاته ، وتحصى غلطاته ، ويسىء بالإحسان ظنا ، لا كمن هو بابنه وشعره مفتون " .

ثم يقول : " وإذا تركت الهوى قلت : إن هذا الكتاب بديع فى إغرابه وليس له صاحب فى الكتب ، فيقال : إنه منفرد بين أصحابه من أحداثه أو من أترابه[١٣٦] .

---

[١٣٥] - ذاته١ /٣٧ تحقيق د . أحمد الحوفى ، د . بدوى طبانه طبع دار نهضة مصر .
[١٣٦] - ذاته ١ /٣٧ .

obeikandl.com

الجانب النقدى فى الكتاب :

وابن الأثير ناقد ذواقه ، لا يقف أمام القواعد الجافة ، والنظريات الجامدة ، والمقاييس الجمالية التى لا تفرق بين الجمال والجلال ، او بين الحلاوة والملاحة ، وإنما يجب على الناقد أن يكون ذا ذوق فنى مرهف يستطيع به ان يفرق بين هندسة الشكل وانسجام التركيب ، وبين نبض الشكل وحيويته .

فنراه يقول : وعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ، فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخير عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا. وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك . واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال " .

وإنما يبلغ الإنسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال[١٣٧]

والذوق لديه ذوق فنى ، يعتمد على الدراسة المتأنية والعكوف على ما كتبه السابقون مع التمرس والدربة والمران على إستخدام الذوق فى كل ما يعن له من مشكلات ، وما يعرضه من نصوص وأخبار على منضدة البحث والتحليل .

وفى هذا الكتاب أدلى ابن الأثير بكثير من الآراء النقدية التى يعتد بها فى موازين النقد الأدبى ، ويتصدى لآراء غيره من النقاد ، مدليا بدلوه فى ميدان النقد

---

[١٣٧] - المثل السائر لابن الأثير ٤ / ٣٨ .

الأدبى من منطلق ذوق فنى وفكر نقدى سليم لا يتعارض مع أصحاب الذوق الادبى والفطر السليمة . ومن بين القضايا النقدية التى انبرى لها ابن الأثير " العيب الـذى سماه أبو هلال العسكرى بالتضمين . وسماه قدامة ابن جعفر " المبتـور " وهـو ان يطول المعن عن ان يحتمل العروض تمامه فى بيت واحد . فيقطعه بالقافية . ويتممه فى البيت الثانى(١٣٨) .

وعند أبى هلال العسكرى أن التضمين هو ان يكون الفصل الاول مفتقرا إلى الفصل الثانى . والبيت الأول محتاجا إلى الأخير . ومرجع ذلك البيت مـن وجهـة نظرهم أن نقاد الشعر العربى قد درجوا على أن وحدة الشعر هى البيت لا القصـيدة .ولهذا عدوا إحتياج البيت إلى ما بعده ليتمم معناه عيبا من العيوب التى يجب علـى الشاعر الجيد أن يتجنبها . وهم لا يقصرون هذا العيب على الشعر . بل يحكمون به على النثر أيضا .

وهذه النظرة لا يخفلى فسادها حيث إن القصـيدة ينبغـى أن تكـون وحـدة متماسكة. والحكم على الشاعر أو الشعر بيت واح لا يخلو من التجنى والتعسف . أما حجتهم فى أن الشعر ما كان البيت فيه قائما بنفسه مستقلا عما قبله وعما بعده حتـى يصبح كالمثل يصلح للاقتباس والاستشهاد فيه خروج عن طبيعة الشـعر . بـل إن القصيدة من الشعر أو الفصل من النثر يحدث تأثيره بمجموعه الكلى . بعـد قـراءة القصيدة كاملة أو الفصل من الكلام المنثور ، فـيحس القـارئ بالنشـوة والطـرب والانفعال ، والتأثر بما قرأ من فكر صائب وألفاظ منتقاة ، وخيال رحب ، وأسـلوب متين ، ولفظ رصين وأن قرائته الكاملة للنص شعراً كان أو نثراً تعطيه انطباعاً تاماً عما دار بخلد الشاعر أو الكاتب مما أومأنا إليه آنفاً من الأفكار والخيـال حيـث إن القصيدة الشعرية أو الكلام المنثور إنما يترابط بعضه ببعض ويكمل بعضـه بعضـاً كالبنيان المتراص إذا سقطت منه لبنة اختل البناء ، وكـذلك القصـيدة الشـعرية أو

١٣٨ - مقدمة كتاب المثل السائر ص ٢٦ وبتصرف .

الكلام المنثور فلو أن عبارة لك تكن فى مكانها أو سقطت من الكلام ربما أخلت بالقصيدة كلها ، وفقد الكلام المنثور قيمته ، فلابد من تناسق الصور ، وتتابع الأفكار، فحاجة الكلام بعضه إلى بعض دليل الرصانة والتماسك ، ولا نرى فى ذلك عيباً ، بل العيب أن لا يأخذ بعضه بحجز بعض .

وابن الأثير لا يوافق النقاد فيما ذهبوا إليه فيقول : " إن المعيب عند قوم " تضمين الإسناد " وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثانى ، ولا غنية لأحدهما عن الآخر ، ولا يتم معناه إلا به ، وذلك على المعدود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما من الآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالآخرى لأن الشعر هو : كل لفظ موزون مقفى دل على معنى ، والكلام المسجوع : هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع فى الوزن ، والفقر المسجوعة وردت فى كتاب الله الكريم من ذلك قوله عز وجل : " فأقبل بعضهم على بعض يتسائلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين – يقول أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون " [١٣٩].

هذه الفقر الثلاث مرتبط بعضها ببعض وحيث يتوقف فهمك لإحداها على فهم الأخرى ، والقرآن الكريم هو : قمة الإعجاز البلاغى واللغوى . ورد كذلك فى قوله تعالى (فإنكم وما تعبدون – مأنتم عليه بفاتنين – إلا من هو صال الجحيم) [١٤٠] . فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى وكذلك قوله تعالى : (أفرأيت إن متعناهم سنين – ثم جائهم ما كانوا يوعدون – مأغنى عنهم ما كانوا يمتعون) [١٤١] .

---

[١٣٩] - سورة الصافات آية رقم ٥٠ إلى ٥٣ .
[١٤٠] - سورة الصافات آية رقم ١٦١ – ١٦٣ .
[١٤١] - سورة الشعراء آية رقم ٢٠٥ – ٢٠٧ .

فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى والثانية إلا بالثالثة فالأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب . والجواب فى الآية الثالثة ، وقد استعملته العرب كثيراً ، ووارد فى شعر فحولهم ، فمن ذلك قول الشاعر :

ومن البلوى الذى ليس لها فى الناس كنه

أن من يعرف شيئاً يدمن أكثر منه

فالبيت الأول لا يقوم بنفسه ، ولا يتم معناه إلا بضميمة الثانى إليه ، ومنه قول امرؤ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكلِ

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى يصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

وبهذه الحافظة الواعية يؤيد ابن الأثري قوله جاعلاً إمامه وقبلته القرآن الكريم وهو المثل الأعلى فى البيان والبلاغة ، وكذلك استدلاله بشعر فحول الشعراء الجاهليين ويعد ابن الأثير من أعظم نقاد العرب اللذين درسوا السرقات الشعرية ، وفصلوا القول فى ضروبها . ويعد المثل السائر من أعظم الكتب التى تناولت هذا الموضوع بدراسة خصبة مجدية ومن هذا المنطلق احتل الكتاب مكانة مرموقة بين أصول البلاغة والنقد الفنى عند العرب [١٤٢] .

ونرى ابن الاثير قد خالف كثرة كاثرة من العلماء اللذين تورعوا عن استخدامهم للفظة " سجع " لكتاب الله واستخدموا بدلاً منها لفظة " فواصل " حتى لا يشبه القرآن الكريم وآياته بكلام البشر حيث إن كتاب الله وبيانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله مثل أعلى فى البيان والبلاغة أما كلام البشر فيجئ تارة قوياً متماسكاً رصيناً وتارةً أخرى يجئ ضعيفاً ركيكاً يمجه الذوق وتأباه الأسماع وإن كان ابن

[١٤٢] ـ مقدمة الكتاب ص ٢٧ وما بعدها بتصرف – القسم الأول ط دار نهضة مصر .

الاثير قد دافع عن وجة نظره بذكاء حيث إنه يقول : فإن قيل أن النبـى صـلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكراً وقد كلمه بكلام مسجوع أسجعاً كسجع الكهان . ولولا أم السجع مكروه لما أنكره النبى صلى الله عليه وسلم .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبى صلى الله عليه وسلم السجع لقال : " أسجعاً ؟ ثم سكت وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل ، فلما قال أسجعاً كسجع الكهان " صار المعنى معلقاً ار المعنى معلقاً على أمر وهو إنكار الفعل لما كان على هذا الوجه ؟ . فعلم إنه إنما ذم السجع ما كان مماثلاً لسجع الكهان ، وأنه لـم يـذم السجع على الإطلاق [١٤٣] .

ونحن نرى أنه من الواجب على المسلم أن يربأ بنفسه عن مقارنـة كـلام الله بكلام البشر ، حيث إن كلام الله تبارك وتعالى لا يخضع للمقاييس التى يخضع لهـا كلام البشر ، من حيث القوة والضعف والفصاحة والبلاغة وما إلى ذلك من المقاييس التى اشتهرت بين العلماء ، فهو يرتفع فى اسلوبه وألفاظه عن أساليب البشر .

ومن الجوانب النقدية التى أثارها ابن الأثير فى الكتاب" قضية اللفظ والمعنى " وهى من القضايا الهامة والتى عنى بها الباحثون والنقاد ، وشغلت مساحات واسـعة فى مؤلفاتهم ، وما ذلك إلا أن فريقاً يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايتـه ووكـده وهم فوق ، فرقة تذهب إلى فخامة الكلام وجزالته من غير تصنع كقول بشار : [١٤٤]

إذا ما غضب غضبة مضرية   **وهكذا** ....

إذا ما أعرنا سيداً من مثله   **ذرى منبر صلى علينا وسلما**

وهذا النوع أدل على القوة .

---

١٤٣ ـ ذاته ١٧٣/١ بتصرف .
١٤٤ ـ العمدة لابن رشيق ١/ ١٢٤ ، ١٢٥ .

وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبى القاسم ابن هانئ ومن جرى مجراه ، فإنه يقول فى أول مذهبته :

أصاخت فقالت : وقى أجرد شيظة وشامت فقالت : لمع أبيض مخزم

وما زعرت إلا لجـــرس حليهـــا ولا رمقت إلا بـــرى فى مخـــدم (١٤٥)

وليس تحت هذا كله إلا الفساد ، وخلاف المراد ، ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها ليست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرسق وقع فرس أو لمع ســيف ؟ غير أنها مغزوة فى دارها أو جاهلة بما حملته من زينتها ولم يخف عنا مراده أنهــا كانت ترقبه فما هذا كله ؟

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقــع عــن هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومى وأبى الطيب المتنبى ، ومن شاكلهما .

وأكثر الناس على فصل اللفظ على المعنى فيقولون أن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلباً ، فإن المعانى موجودة ، يســتوى الجاهــل فيهــا والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السك ، وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلاً أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحــر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المضاء بالسيف ، وفى العزم بالســيل ، وفــى الحســن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حالها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة ، والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر (١٤٦).

ونرى أن بعضهم يمثل المعنى بالصورة . واللفظ بالكسوة ؛ فــإن لــم تقابــل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها ، وتضائلت فــى عين مبصرها (١٤٧) .

---

١٤٥ - وكده – قصده – الأجرد . الفرس القصير الشعر النظيم : طويل الجسم – المخزم – أراد بع السيف القاطع المخدم – محل الخلخال .

١٤٦ - العمدة لابن رشيق القيروانى ص ١٢٧ . ط دار الجيل – لبنان .

١٤٧ - ذاته .

وقال بعضهم الكلام الجزل أغنى من المعانى اللطيفة .

إلا أنهم وجدوا بعض الشعراء يقوى لفظهم ويعظم أسلوبهم حتى لتسمع منه صليل السيوف ، وقعقعة السلاح ، كقول بشار بن برد :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

كما وجدوا كثيراً من الشعراء رقت ألفاظهم ، ولانت عباراتهم فاختلفوا فيما بينهم . ففقريق يحصر اللفظ على المعنى ، وفريق آخر يشد من أزر المعنى ، ويقوى ساعده وعضده ، ومنهم من يرى أن اللفظ والمعنى بمثابة جسم لا يمكن أن ينفصل من روحه والجسم فى نظرهم " هو اللفظ " والروح : " هو المعنى " وهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً كارتباط الروح بالجسم فهو يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه ، فإذا سلم المعنى واختل اللفظ كان ذلك نقصاً فى الشعر والشاعر . وإذا سلم المعنى واللفظ كان ذلك كمالاً وقوة للشعر والشاعر ، ولذلك يقول ابن رشيق القيروانى : " اللفظف جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ؛ كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور ، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض للأجسام من المرض يمرض الأرواح .

ولا يجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله ، وفسد بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه .

obeikandl.com

وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لا ينقص من شخصه شيىء فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة وكذلك إن اختل اللفــظ جملــة ، وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة " [١٤٨] .

أما ابن الاثير فإنه يرى أن المعانى مع جلالها وعظامتها وخطورة شــأنها لا تقف على قدم المساواة مع الألفاظ ، فإن المعانى من وجهة نظره قد يظفر بها أناس ليست لديهم قرة على صوغها ، وانتقاء الألفاظ المناسبة لها ، وإلباسها ثوباً قشيباً من الرونق والبهاء ، والقوة والفخامة .

يقول ابن الأثير : " ومع هذا فلا تظن أيها الناظر فــى كتــابى الموصــوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ، ما يماثله ويساويه فإنــه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله ، والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف .

وهو فى مقولته هذه يكاد يتفق مع ابن رشيق القيروانى ولكننا نــراه يضــيف معنى جديد حيث يقول : " على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها " [١٤٩].

مما تقدم يستبين لنا بوضوح أن ابن الأثير يؤازر جانب اللفظ على المعنــى ، ويعالن النقاد والأدباء والشعراء والباحثين أن الحصول على المعانى الشريفة أيســر من الحصول على الألفاظ الجديدة .

ويستدل ابن الأثير على وجاهة رأيه ، وقوة حجته ، وإصابته المحز فيما ذهب إليه من مناصرته جانب اللفظ على جانب المعنى بما يحكيه عن المبرد من أنــه إذا

---

[١٤٨] - العمدة لابن رشيق القيروانى ١ / ١٢٤ تحقيق الشيخ / محمد محى الدين عبد الحميد ص ١٠٣ وما بعدها . ط . دار الجيل – بيروت – لبنان .

[١٤٩] - المثل السائر وابن الأثري ١ / ٢٣ .

أراد أن يكتب شيئاً رتب المعانى فى نفسه ، ثم يحاول صوغه بألفاظ مرضية فلا يستطيع ذلك . فالمعنى متواجد لديه بيد أن اللفظ قد يند عنه فيقول :

" ويحكى عن المبرد – رحمه الله – أنه قال : ليس أحد فى زمانى إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن ، أو مشكل من معانى الحديث النبوى أو غير ذلك من المشكلات العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، وإذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى ، وأردت أن أكتب إليه شيئاً فى أمرها أحجم عن ذلك لأنى أرتب المعنى فى نفسى ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ، ولقد صدق فى قوله هذا وأنصف غاية الإنصاف " [١٥٠] .

ثم نر أن الأثير يستطرد فى الاستدلال على ما ذهب إليه من تقوية وترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى حيث أن رأى الجهال الذين يحصلون على المعانى ، بيد أنهم لا يجيدون التعبير عنها بالألفاظ التى تتواءم وجلال هذه المعانى فيقول : " ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الرقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول " .

" وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى فإنه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء يتعلم العلم " [١٥١] .

ويبدو أن ابن الأثري حاول بلورة رأى " الجاحظ " فى انتصاره للمعنى على اللفظ ، وكذلك رأى الإمام " عبد القاهر الجرجانى " الذى عالن به فى كتابه " دلائل الإعجاز " من انتصار اللفظ على المعنى ؛ وذلك حين صرح به فى مقولته " والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى . والعربى . والقروى . والبدوى .

---

[١٥٠] ـ المثل السائر ١ / ١٢٣ . ت . د / أحمد الحوفى ، د / بدوى طبانة .
[١٥١] ـ ذاته ص ١٢٤ .

وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع وكثرة الماء ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير " [١٥٢] .

وعلى الرغم مما تقدم فإننا نرى أن ابن الأثير لم يحالفه التوفيق الذى حالف صاحبه " العمدة " ابن رشيق القيروانى ، ولم يوفق أيضاً إلى رأى عبد القاهر الجرجانى الذى يستدل على ما ذهب إليه بكلام " الجاحظ " فهو يوافقه عليه ، ويؤيده فيما ذهب إليه ، ويؤمن به ويؤكد ذلك فى أكثر من موضع من كتابه " المثل السائر " وذلك دليل حاسم على أنه كان يرى ما ارتآه الجاحظ فى صياغة الكلام " ذلك أن عبد القاهر قصد إلى بيان السر فى بلاغة التعبير ، وأن ذلك يعود إلى ما بين المعانى المدلول عليها بالألفاظ من ىخ ، وارتباط ، وهو تآخى معانى النحو ، وارتباط بعضها ببعض فكلما كان هذا التآخى شديداً ، وكلما كان هذا الارتباط معجباً ، وكلما كانت الصلة مؤثرة كان ارتقاء الكلام فى درجات البلاغة " [١٥٣] .

ومما تقد يستبين لنا بوضوح وجلاء تامين أن رأى ابن رشيق القيروانى واضح الأثر قوى الدلالة ، فاللفظ والمعنى كلاهما يؤدى دوره ويسهم فى تكوين الصرح الشامخ لموضوع متكامل .

ويرى ابن سنان الخفاجى أن فواصل القرآن الكريم يمكن أن نطلق عليها اسم " السجع " فيقول : " ومن المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ السجع والازدواج ، ويحد السجع بأنه تماثل الحروف فى مقاطع الفصول . كما يقول : " وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً ، وحجة من يكرهه : أنه ربما وقع بتكلف وتعمل ، واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام ، وأزال مائه . وحجة من يختاره أنه مناسباً بين الألفاظ يحسنها ، ويظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد فى كتاب الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، والفصيح

---

[١٥٢] - راجع دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ١٨٩ .
[١٥٣] - عبد القاهر الجرجانى وجهوده فى البلاغة العربية ص ١٢٥ وما بعدها ، سلسلة أعلام العرب العدد الثامن .

من كلام العرب وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ، فكذلك النثر يحسن تمثال الحروف فى فصوله ، ثم يستطرد قائلاً [١٥٤] : والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً ميسوراً بلا كلفة ولا مشقة بحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما بتخيل أنه لأجله ورد البصير وصلة إليه ، ثم قال : أما الفواصل التى فى القرآن ، فإنهم سموها فواصل ، ولم يسموها أسجاعاً ، وفرقوا فقالوا إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصوده فى نفسها ، وقال علىّ بن عيسى الرمانى : إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب ، وعلل لمقولته من أن السجع تتبعه المعانى ، والفواصل تتبع المعانى . وهذا غير صحيح والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة هى مقاطع الفصول . والفواصل على ضربين :

١- **ضرب يكون سجعاً** : وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع .

٢- **وضرب لا يكون سجعاً** : وهو ما تقاربت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل .

ولا يخلو كل واحد من المتماثل والمتقارب ولا يأتى طبعاً سهلاً وتابعاً للمعانى . وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى فإن كان من القسم الأول . فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان . وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض [١٥٥] .

ثم يومئ إلى أن ما ورد فى كتاب الله هو المحمود ، وذلك جائز أن يسمى سجعاً لما فيه من معنى السجع وليس هناك مانع شرعى من إطلاق تلك التسمية عليه ثم يقول : وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل . ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق فى غيره من الكلام الروى عن الكهنة وغيرهم . وهذا غرض فى التمسية قريب . فأما الحقيقة

---

[١٥٤] - راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

[١٥٥] - راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعاً . وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً . وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة فى البيان ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع [١٥٦] .

ولقد مال الدكتور أحمد موسى إلى رأى من يجيز تسمية فواصل القرآن سجعاً. وذلك لحسن موقعه فى السمع وتأثيره فى النفس وخلابته للعقل وسهولته فى الحفظ [١٥٧].

ثم يعلل لذلك بقوله : " ونرى أن النهى فى الحديث منصب على سجع الكهان لا لتكلفه فحسب كما قال أبو الهلال العسكرى . ولا لما تضمنه من حكم كما يقول ابن الأثير بل إنه قد عهد فى الكهان التمويه فى أحكامهم وإنما يقصدون إلى السجع مصرين عاملين لأنه يخامر العقول ويخدر الأعصاب ، ويؤثر فى النفوس تأثير السحر ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم لما يحدثه من النغمة المؤثرة . والموسيقى القومية التى تطرب لها الآذان ، وتهش النفس فيغفل العقل من تمييز الصحيح من الزائف ويلهو الفكر عن تمحيص الحق من الباطل .

هذا ولا حرج علينا بعد هذا البيان أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعاً [١٥٨].

ونحن نقول : إنه لهذا السبب يجب أن ننزه القرآن الكريم عن هذه التسمية حتى لا تكون هناك أدنى صلة بين ءيات القرآن وهى التى تؤثر فى النفوس . وتستولى على العقول والقلوب . وبين سجع الكهان الذى يزيفون به الحقائق ويلبسون

---

١٥٦ - راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .
١٥٧ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور / أحمد موسى ص ٤٨ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .
١٥٨ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور / أحمد موسى ص ٤٨ وما بعدها .

به الباطل ثوب الحق . ولذا : فإننا نعد برأى القاضى أبى بكر الباقلانى فى إعجاز القرآن [159] .

ونحن نميل إلى هذا الرأى تنزيهاً لكتاب الله عن مشابهة أو تشبيه لكلام البشر مهما كانت هناك من موافقات أو اتفاق حتى لا ينفتح الباب على مصراعيه للطعن . أو إدخال الشبهة على كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وتلك مهمة كل مسلم غيور على عقيدته وإسلامه ولما أن ذكرنا تأييدنا لرأى الباقلانى رأينا إثباته هنا لزيادة الفائدة ، فهو يقول : لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أم يقول هو شعر معجز وكيف السجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر من أن يكون حجة من نفى الشعر لأن الكهانة تنافى النبوات ، وليس كذلك الشعر [160] .

وبعد سرد البلقان لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " أسجع كسجع الكهان " تراه يردد على أولئك الذين يجترون تسمية فواصل القرآن سجعاً فيقول : والذى يقدرونه فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى وليس كذلك ما اتفق عليه مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، ثم يردف ذلك بقوله إنه لو كان سجعاً لعارضوه لقدرتهم على ذلك ولما تحيروا فيه ووصفوه بالسحر [161] .

وهكذا يستطرد الباقلانى فى دحض حجج القائلين بأنه لا مانع من تسمية فواصل القرآن سجعا فيقول :
أما الأمور التى يستريح إليها الكلام فإنها تختلف ، فربما كان ذلك يسمى قافية .

159 ـ مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد الأول ص ١٢٥ بحث د . عبد المنعم يونس .
160 ـ المجاز القرآن للبلقانى ص ٥٧ وما بعدها . ت سيد صقر – ط – دار المعارف .
161 ـ ذاته .

وذلك إنما يكون فى الشعر وربما ينفصل عنده الكلام . فيسمى تقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل ، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام ، ولا تناسب[١٦٢] وذلك مما نميل إليه ونؤيده ونربأ بكتاب الله عن مسايرته ، وتشبيهه بكلام البشر ، فبون شاسع ، وفرق بعيد بين كلام الناس وكلام خالقهم .

حيث إن كلام البشر يتسم بالقوة والضعف ، ويخضع فى قوته وضعفه إلى اختلاف ثقافة الكتاب كل حسب استعداده وثقافته وتحصيله للعلوم والمعارف .

لكن كلام الله تبارك وتعالى المنزل على سيدنا محمد (ﷺ) فوق كل هذه المقاييس ، وتلك الاعتبارات والموازين فهو قمة الإعجاز البلاغى واللغوى ، ولا غرو فهو تنزيل من حكيم حميد .

ويحاول " ابن الأثير " وضع شروط للسجع تقربة من " فواصل القرآن الكريم" ونراه يباهى ويفاخر بأنه حاز قصب السبق فى هذا المضمار ، وأنه بز لداته فى ذلك القول ، ووضع مثالا لذلك إذا حذوته كنت فى مامن الطاعن والعائب فيقول : " واعلم أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة ، فإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا ، وهذا شىء لم ينبه عليه أحد غيرى وسأبينه ها هنا ، وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم .

وامثل لك مثالا إذا حذوته أمنت الطاعن والعائب ، وقيل فى كلامك ليبلغ الشاهد الغائب ، والذى أقوله فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتبن مشتعلة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها فإن كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ

---

[١٦٢] - اعجاز القرآن للبلقانى ص ٥٧ وما بعدها تحقيق السيد صقر . ط . دار المعارف .

يمكن الدلالة عليها بدونها فإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت إحداهما كافية فى الدلالة عليه ، وجل كلام الناس والمسجوع جار عليه .[١٦٣]

ثم نراه يضع شروط للسجع تجعله يدنو من فواصل القرآن الكريم وهى :

أولا : اختيار مفردات الألفاظ .

ثانيا : اختيار التراكيب .

ثالثا : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ .

رابعا : ان تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها .[١٦٤]

وتلك محاولة من " ابن الأثير " لينتصر لرأيه ، ولم يكن بدعا من الأمر فى هذا المجال ، أو أنه أضاف جديدا بل سبقه بذلك علماء البلاغة الذين كان لهم فضل السبق والتقدم عليه فى طرح هذه القضية ، فإن كان ابن الأثير توسع فيها ، فإن علماء البلاغة هم الذين وضعوا يده على جادة الطريق وفتحوا عينيه على معالمها وأفسحوا له المجال فبرز فيه وأجاد .

ومن بين القضايا النقدية التى تناولها " ابن الأثير " فى كتابه " المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " فى قضية " السرقات الشعرية " .

" وبحث ابن الأثير فى السرقات الشعرية من أمتع مباحث المثل السائر وأوفاها ، فقد درسها دراسة علمية منظمة ، وجعل إثارة الأدباء من سابقيهم أقساما معروفة ، وانواعا متميزة واستدل لكل قسم منها بالامثلة الكافية الموضحة التى تدل على سمة المعرفة وكثرة المحفوظ والقدرة على لمح الإفادة ، وإن دقت على النظر "[١٦٥] .

---

[١٦٣] - راجع " المثل السائر " لابن الأثير ١ /٢٧٨ وما بعدها .

[١٦٤] - ذاته ص ٢٧٩ .

[١٦٥] - راجع مجلة تراث الانسانية – مجلة رقم " ٢ " العدد الثانى ص ١١٢ ومجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية " العدد الاول " ص ١٥٢ بحث للزميل الأستاذ الدكتور / عبد المنعم أحمد يونس .

وإن كان ابن الأثير قد نهج نهج من سبقوه فى معالجته قضية السرقات الشعرية ، وتعرضه لبعض الأنواع التى لا سرقة فيها إلا أنه عرضها عرضا جميلا، واتى فيها براجح القول ، وعذب الحديث ، وكان له بعد ذلك فضل الجمع والترتيب وحسن التقسيم .

فابن الأثير يقوم بتقسيم السرقات تقسيما يدل دلالة حاسمة على توقد ذهنه . وصفاء قريحته وقوة حافظته ، ورحابة فكره وسعة أفقه ، فالسرقات لديه هى :

أولا : النسخ : وهو اخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذا من نسخ الكتاب .

ثانيا : السلخ : وهو أخذ بعض المعنى ماخوذا ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ .

ثالثا : المسخ : وهو إحالة المعنى إلى ما دونه مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة .

ثم يستطرد ابن الأثير قائلا "وها هنا قسمان آخران أخللت بذكرهما فى الكتاب الذى ألفته ، فأحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه والآخر عكس المعنى إلى ضده ، وهان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ "[١٦٦].

وواضح ان ابن الأثير متأثر فى مقولته تلك بصاحب الوساطة " على ابن عبد العزيز الجرجانى[١٦٧] " الذى فصل القول فى " السرقات الشعرية " وكان كلامه فى ذلك فصل الخطاب حيث إنه طرح قضية المفاضلة بين أبى تمام والبحترى والمتنبى سائرا فى ذلك على منهاج " القاضى الجرجانى فى كتابه " الوساطة " حيث يتحدث عن شعر أبى تمام وأبى نواس والبحترى ، فيقول ابن الأثير عن هؤلاء الشعراء .

---

[١٦٦] - راجع " المثل السائر " لابن الأثير ٣ / ٢٢٢ .

[١٦٧] - الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ص ١٨٣ وما بعدها .

" أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب ، وأذهان ، وقد شهد لــه بكــل معنى مبتكر ، ولم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذى زاد فيه عن الإضراب " .

ثم يقول عن " البحترى " وأما أبو عبادة فإنه أحسن فى ســبك اللفــظ علــى المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق .

ثم يذكر رأى المتنبى عندما سئل عنه وعن أبى تمام فقال : " أنا وأبــو تمــام حكيمان ، والشاعر البحترى " فقال : " فإن أبا عبادة أتى فى شــعره فــى المعنــى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصنوع من سلالة الماء ، فأدرك بذلك بعــد المرام مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط غالية ، ورمى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية " .

ويقول عن أبى الطيب المتنبى " وأما أبو الطيب المتنبى فإنه أراد أن يســلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر ما أعطاه ، لكنــه حظــى فــى شعره بالحكم والأمثال واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال " .

ثم يقول " وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذرة فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء " (١٦٨) .

وابن الأثير وإن كان رأيه يوافق آراء الكثير من النقاد فى شعر المحــدثين إلا أنه أتى برأى جديد فى شعر امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى ، حيث إنه فضل على اشعارهم شعر الفرزدق وجرير والأخطل ، وذلك حين قال " والمذهب عنــدى

١٦٨ ـ **المثل السائر لابن الأثير ٣/٢٢٧ وما بعدها .**

فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر العرب أولاً وآخراً . ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه " .

ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلاً من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة . وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام وأبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعر " [١٦٩] .

وهكذا يعالننا ابن الكثير برأيه فى تفضيل الشعراء محاولاً التعليل والإتيان بالحجج القوية ليدعم بها رأيه ، ويقنع به غيره .

وابن الاثير يضع القضايا مجملة ثم يفصلها ويجعلها أبواباً ويقسمها أقساماً مرتبة حيث إننا نراه يقسم السرقات إلى " نسخ ومسخ وسلخ " ثم نراه يعود مرة أخرى فيقسم النسخ إلى قسمين هما :

أولاً : إما أن يؤخذ المعنى واللفظ .

ثانياً : وإما أن يؤخذ المعنى وأكثر اللفظ .

فمثال الأول قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقال طرفة بن العبد البكرى :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثال الثانى : قول الشاعر يمدح معبداً المغنى :

---

[١٦٩] ـ ذاته .

أجاد طويس والشربجى بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

فجاء أبو تمام فقال :

محاسن أصناف المغنين جمـــة وما قصبات السبق إلا لمعبد

ثم يعود فيقسم " السلخ " إلى اثنى عشر حزباً . ثم يذكرها مبوبة مرتبـــة [١٧٠] . ثـــم يقسم " المسخ " إلى قسمين . ويختم هذه التقسيمات بمقولته " وهذه السرقات . وهـــى ستة عشر نوعاً لا يكاد يخرج عنها بشئ . وإذا أنصفالناظر فى الذى أثبت به هاهنا على أنى قد ذكرت ما لم يذكره غيرى وأنا أسأل الله التوفيـــق لأن أكـــون لفضـــله مشكوراً ، وألا أكون مختالاً فخوراً " [١٧١] .

والواقع أن جل ما ذكره " ابن الأثير " من أصول فن الأدب وما يسمو به وما ينحط ، لم يكن من اثر النظر . وضرورة التخيل لمثل الفن الأدبى كما كان ذلك شأن أكثر الآراء التى أثرت عن الذين قننوا لهذا الفن . ووصفوا قواعده . وقد كان جهـــد أكثرهم أهمية وأجدرهم بالاعتبار هى الموازنة بين الأعمال الأدبيـــة واســـتخلاص مظاهر القوة والجمال التى امتازت بها بعض هذه الأعمال عن غيرها على حين أن " ابن الأثير " كانت صفته الاساسية البارزة هى انشغاله بالأدب واحترافه فن الكتابة والذى عد علماً من أعلامه .

ولذا جاءت آراؤه فى الأدب والنقد صادرة عن الفن الذى أعد نفسه له وعـــن التجربة التى عاش حياته فيها ولذلك نراه قد قرأ آثار الكتـــاب الـــذين ذاع صـــيتهم وسطع فى سماء الكتابة نجمهم ليقف على مناهجهم فى ذلك الفن ويحلل وينقد ما يراه مخالفاً للمقاييس التى ارتضاها لنفسه وهى المقاييس التى رأى أنها أكثر دلالة علـــى إتقان الصنعة والتمكن منها ولم يقف فى سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هـــذه الصناعة بل إنه نقد معاصريه منهم وهم الذين يشار إليهم فـــى عصـــره فـــى تلـــك

---

[١٧٠] ذاته ٤٣٣/٣ وما بعدها .
[١٧١] ذاته ٤/ ٤ .

الصناعة بل إنه نقد معاصريه منهم وهم الذين يشار إليهم فى عصره فى تلك الصناعة بالبنان " [١٧٢] .

والدكتور " بدوى طبانه " يشير بذلك إلى موقف " ابن الأثير " من زعيم الكتاب " القاضى الفاضل " وهو مزامن لابن الأثير بل إن القاضى الفاصل هو الذى قرب ابن الأثير من القائد المسلم " صلاح الدين الأيوبى " ومع ذلك نراه ينكر على القاضى الفاضل طريقته فى الكتابة ثم يقمح ويهجن ما كتبه القاضى الفاضل ويستحسن ما كتبه هو . وفى رأينا أن ذلك جاء من اعتزازه بنفسه واعتداده بفنه اعتداداً جعله يفاخر ويباهى بنفسه ويهون من شأن غيره وإذا تتبعته فيما أورده وزعم أنه أتى فيه بجديد وأن أحداً غيره لم ينبه عليه وجدته قد سبق به ولم يأت بجديد فيه. فمثلاً :

يقول ابن الأثير فى " قوة اللفظ لقوة المعنى " هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب " الخصائص " [١٧٣] . إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التى تضمنته . وهذا يظهر بالوقوف على كلامى وكلامه ، فأقول : اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً . لأن الألفاظ أدلة على المعانى وأمثلة للإبانة عنها فإذا زيد فى الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعانى ، وهذا لا نزاع فيه لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا فى مقتم المبالغة [١٧٤] .

وبالرجوع إلى كتاب الخصائص لابن جنى تجد أن ابن الأثير نقل ذلك الرأى برمته عن ابن جنى ولم يضف جديداً ، وكلذك فى قضية اللفظ والمعنى نجده قد نقلها

---

[١٧٢] - راجع تراث الإنسانية مجلد " ٢ " العدد الثانى ص ١١٣ د . بدوى طبانة . بتصرف .
[١٧٣] - الخصائص لابن جنى .
[١٧٤] - المثل السائر لابن الأثير – القسم الثانى ص ١٤٦ .

obeikandl.com

أيضاً عن ابن جنى فى كتابه " المحتسب " [١٧٥] ، ثم يزعم أنه أتـــى بجديـــد ، وأن غيره لم ينبه على ذلك .

وهذه بعض المآخذ التى أخذت على ابن الأثير .

والحقيقة أن ذلك كله لا يغض من قدر ابن الاثير ، ولا منزلة كتابه ، " المثل السائر " فهو من الكتب الأدبية الهامة ، التى حوت كنوزاً من العلم والمعرفـــة تـــدل على الجهد المبذول من المؤلف ، وسعة أفقه ورحابة فكره ونفاذ بصيرته ، وثاقـــب نظره ، وذوقه الرفيع .

ويعد الكتاب ثروة لا ينضب معينها ، وهو زاد لا ينفـــد لعشـــاق الدراســـات الأدبية والباحثين ، تعد غرة فى جبين الدهر ، وقلادة يزدان بها جيد الزمان ، فمـــا حواه من موضوعات متنوعة يجعلك تحس أنك فى روضة تنتقـــل بـــين أعطافهـــا مستمتعاً بأرجها العطر ، وشذاها الفواح .

[١٧٥] - راجع المحتسب لابن جنى ٢ / ١٤ .

openkandil.com

نماذج من الكتاب

النموذج الأول

فى وصف الجود والسخاء

وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة ، فمنها قوله فى العطاء :

شافهتنى أسباب الغنى برويته ، حتى كادت تنطلق ، واخضرت أكنان منزلـــى حتى كادت تورق ، ومن فضيلة بره أنه لا يأتى به على أعين الناس وإذا غرسه عند إنسان رب ذلك الغراس فلا يستكثر ما جاءت به سحاب يده ولا يمنعه عطاء يومـــه عن عطاء غده ، وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس :

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا   لم يهدموا لبنائهم أساساً [176]

النموذج الثانى

فى الإيجاز

وهو حذف زيادات الألفاظ ، وهذا نوع من الكلام شـــريف لا يتعلـــق بـــه إلا فرسان البلاغة ، ومن سبق إلى غايتها وما صلى ، وضرب فـــى أعلـــى درجاتهـــا بالقدح المعلى ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر إمكانه ، والنظر فيه إنما هو إلى المعـــانى لا إلى الألفاظ ، ولست أعنى بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى على أرضها الحسنة بل أعنى أن مدار النظر فى هذا النوع إنما يختص بالمعانى . فرب لفظ قليـــل يـــدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل . ومثـــال هـــذا كـــالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ولهذا سمى النبى صلى الله عليه وسلم الفاتحة " أم الكتاب " وإذا نظرنا إلى مجموعهـــا وجـــدناه يســـيراً .

---

[176] ـ المثل السائر ١/١٤٠ .

وليست من الكثرة غاية تكون بها أم " البقرة " و " آل عمران " وغيرها من السور الطوال فعلمنا حينئذٍ أن ذلك لأمر يرجع إلى معانيها [١٧٧] .

النموذج الثالث

ثم يذكر فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان فيقول :

" وما شبهت كتابه فى وروده وانقباضه . إلا بنظر الحبيب فى إقباله وإعراضه . وكلا الأمرين كالسهم فى ألم وقعه وألم نزعه . والمشوق من استوت صبابته فى حالتى وعمله وقطعه . وما أزال على وجل من غرسال كتبه وإجمامها . واشتباه لممها بإلمامها " .

ومما جاء من هذا القسم فى الشعر قول بكر بن النطاح :

تراهم ينظرون إلى المعانى كما نظرت إلى الشيب الملاح

يحدون العيون إلىَّ شذراً كأن فى عيونهم السماح

وهذا بديع فى حسنه . بليغ فى تشبيهه [١٧٨] .

---

[١٧٧] ـ ذاته . القسم الثانى ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
[١٧٨] ـ ذاته ص ١٤٠ ، ١٤٢ .

obeikandl.com